

برنامج الدَّرس الواحد العاشر

الدَّرس (١٣)، الاثنين: العصر ٢١ / رجب / ١٤٣٣

تطْرِيزُ

الشيخ صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

حفظه الله تعالى

علىٰ

الدّروس الأولية في الأخلاق المرْضية

شيخ علماء الإسكندرية محمد شاكر الحسيني

المتوفى ١٣٥٨ رحمه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

السَّلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمْـدُ لله رَبِّنَا، وأشْهَـدُ أن لَا إلـهَ إلَّا اللهُ وحْـدَه لا شَريكَ لَه، وأَشهَـدُ أنَّ محمَّدًا عَبدُه ورسُولُه.

أمَّـا بَـعْدُ..

فهذَا الدَّرسُ (**الثالـث عشـر**) مِـن بَرنـامجِ الـدَّرسِ الواحـدِ **العَاشِـر**، والكِتـابُ المقْـرُوءُ فيـه هُـو: (**الدروس الأولية**) لِلعلَّامةِ محمد شاكر الحُسيني رَحِمَهُ اللهُ.

وقَبلَ الشُّروعِ في إقرائِه لَابُدَّ مِن ذِكرِ مُقدِّمتَينِ اثنَـتَينِ:

المقدِّمةُ الأولَىٰ: التَّعريفُ بالمصنِّـفِ، وتَنـتَظِمُ في ثلاثةِ مَقاصِدَ:

المَقْصَدُ الأوَّلُ: جَرُّ نَسَبِه؛ هو الشيخ العلامة محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر الحسيني الحنفـي الجرجاوي ثم القاهري.

المقصَدُ الثَّانِي: تاريخُ مَولِدِه؛ ولد في شهر شوّال سنة اثنتين وثمانين بعد المائتين والألف (١٢٨٢).

المقصَدُ الثَّالثُ: تاريخُ وفاته، توفي رَحِمَهُ اللهُ صباح يوم الخميس الحادي عشر من جمادىٰ الأولىٰ سـنة ثمان وخمسين بعد الثلاثمائة والألف (١١ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٥٨)، وله من العمر ستّ وسـبعون سـنة رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة.

المقدِّمةُ الثَّانيةُ: التَّعريفُ بالمصنَّـفِ، وتَنـتَـظِمُ في ثَلاثةِ مَقاصِدَ أيضًا:

المقصَدُ الأوَّلُ: تَحقيقُ عُنوانِه؛ طُبع هذا الكتاب في حياة جامعه باسم «الدروس الأولية في الأخـلاق المرْضيّة»، وكونه مطبوعًا في حياته به دليل علىٰ كونه الاسم الذي سماه به.

المقصَدُ الثَّاني: بَيانُ مَوضُوعِه؛ ذكر المصنف في ديباجة كتابه أنه جعله مشتملًا علىٰ الأخـلاق التـي يحتاج إليها طالب العلم في بداية أمره، وأراد ببداية أمره اشتغاله بالعلم حال الصِّغر؛ وهـو أكمـل أحـوال الطلب، فإن ملتمس العلم إذا نُشِّئ عليه صغيرا حاز منه قدرًا كثيرًا وظهرت منفعته عليه كبيرًا.

ومما يؤسف عليه أن العناية بتنشئة الصِّغار علىٰ طلب العلم ضعيفةٌ في الأمـة جـدًّا، ولا يـراد بهـذه التَّنشئة حضُّهم علىٰ العلم وبيان فضله، إنَّما المراد وضع ما يناسب مداركهم ويسدُّ حاجاتهم في الصِّـغر، فمن أراد أن ينشئ ابنًا أو قريب له في حال الصغر، فلا يظن أن انتفاعه بقرب إشرافه في الـدروس العاليـة، وإنما انتفاعه بأن ينشِّئه علىٰ ما يحتاج إليـه مـن أبـواب العلـم، كأصـل الاعتقـاد المُختصـر، والطَّهـارة، والصَّلاة، والأذكار، والآداب والأخلاق، ويحفِّظه من المنظوم والمنثور ما يحبِّب إليه العلم، وهذا شيءٌ مفقود في الأمة، حتىٰ إنك ترىٰ صغار رجل مشتغل بالعلم في حال أجنبيَّة عن حاله، كأنّهم لا يرتقون إليـه

إلا إذا بلغ أحدُهم فينقله إلىٰ طلب العلم، ومثل هذا تأخيرٌ له عمَّا ينفعه.

وملاحظة هذا الأصل تعجِّل انتفاع الأبناء الصِّغار بالعلم وتحبِّبهم فيه، فلابدّ أن يرقُب كلُّ واحد منا له أبناءٌ هذه الحال، وأن يجتهد في سد حاجته بما ذكرنا.

ولا أعلم اليوم شيئًا في الإجازات الصيفية يعتني بتدريس الصِّغار ما يحتاجونه من طلب العلم، وفي النِّية إن شاء الله تعالىٰ إنشاء برنامجين:

أحدهما: وصية الولد الصغرىٰ.

والآخر: برنامج وصية الولد الكبرىٰ.

من كان عنده رأي أو مقرر يصلح لهما فليشر به يكن له أجره.

المقصَدُ الثَّالِثُ: توْضِيحُ مَنهجِهِ؛ رتب المصنف رحمه الله تعالىٰ كتابه علىٰ مقدمة أتبعها بعشرين درسًا في الأخلاق، يترجم لكل درس بما يدل علىٰ مقصوده منه، وأورد مطالب كلِّ فصل مسوقةً في قالَبِ الوصيَّة مستفتحةً بقوله: (يا بني) غالبًا، وطرّزها في مواضع قليلة بذكر شيء من القرآن والحديث وآثار السلف.

وهو كتاب عظيم النفع يصلح للصغار؛ بل يصلح أيضًا للكبار، لكن تنشئة الصِّغار علىٰ ما فيه من الدروس في مدة حسنة، ينفعُهم كثيرًا.

قال المصنِّف رحمه الله:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين؛ وبعد:

فهذه دروس أولية في الأخلاق المرضية، وضعتها لطلبة العلوم الدينية، وقد ضمنتها من الأخلاق ما يحتاج إليه طالب العلم في بداية أمره، حتىٰ إذا وفقه الله للتخلق بها كان مرجوًا أن ينفعه الله بعلمه، وأن ينفع به كثيرًا من خلقه.

والله ولي الرشاد والهادي إلىٰ الصراط المستقيم.

الدرس الأول

نصيحة الأستاذ لتلميذه

يا بُني أرشدك الله ووفقك لصالح الأعمال إنك مني بمنزلة الولد من أبيه، يسرّني أن أراك صحيح البِنية، قوي الإدراك، زكيّ القلب، مهذّب الأخلاق، محافظًا علىٰ الآداب، بعيدًا عن الفُحش في القول، لطيف المعاشرة، محبوبًا من إخوانك، تواسي الفقراء، وتُشفق علىٰ الضعفاء، تغفر الزلّات، وتعفو عن السيئات، ولا تفرِّط في صلاتك، ولا تُهمل في عبادة ربك.

يا بني؛ إن كنت تقبل نصيحة ناصح فأنا أحقُّ من تقبل نصيحته، أنا أستاذك ومعلمك ومربي روحك، لا تجد أحدًا أحرص علىٰ منفعتك وصلاحك مني.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (يا بني، إن كنت تقبل نصيحة ناصح فأنا أحق من تقبل نصيحته)، لأن للعالم أبوة الروح علىٰ الآخذين عنه، فهو شديد الشفقة عليهم عظيم الرحمة بهم، فهُم بمنزلة الأولاد له، لكنّهم ليسوا أولاد أجساد وأشباح؛ بل أولاد قلوب وأرواح، والأبوة الدينية منزلةٌ معتدٌّ بها في العناية والرعاية، وهذا وجه قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (أنا أستاذك ومعلمك ومربي روحك، لا تجد أحداً أحرص علىٰ منفعتك وصلاحك مني). وهذه حال الصَّادقين الذين يرومون من نفع الخلق بتعليمهم أن يحصِّلوا المنافع التي ينالون بها الدَّرجات العالية، والمقامات السَّامية في الدنيا والآخرة، ولا تجدُ معلمًا صادقًا إلا وهو يأمَل أن يكون فيمن أخذ عنه من يبزُّه ويفوق؛ بل الصادق حقًا يأمل أن لا يرىٰ أحد منهم إلا قد ارتفع فوق قدره بالعلم، رجاء أن يكون منهم نفعٌ لأنفسهم وأمّتهم، وإذا آنس المعلم من نفسه كراهية أن يكون في الآخذين عنه من يماثله أو يسبقه في العلم فليتّهم نيته فإن ذلك من علامات السُّوء فيها، ودلائل ممازجة الأخلاق الرَّديئة لها، فإن الصَّادق يعامل الله، ولا يعامل الخلق، فلا يقعُ في قلبه ألمٌ ولا حسرة من أن

يكون أحد أخذ عنه فتقدم عليه؛ لأن أجره فيما يعلِّم ويعمل عائدٌ إليه، فيُكتب له أجر ذلك المعلم الذي انتفع به.

ﮂﮂ ◊ ﮁﮁ

يا بني؛ إني لك ناصح أمين فاقبل ما ألقيه عليك من النصائح، واعمل به في حضوري وبينك وبين إخوانك وبينك وبين نفسك.

يا بني؛ إذا لم تعمل بنصيحتي في خلوتك فقلّما تحافظ عليها بين إخوانك.

يا بني؛ إذا لم تتخذني قدوة فبمن تقتدي؟ وعلام تُجهد نفسك في الجلوس أمامي؟[١]

يا بني؛ إن الأستاذ لا يُحب من تلاميذه إلا الصَّالح المؤدب، فهل يسرك أن يكون أستاذك ومربيك غير راض عنك، ولا طامع في صلاحك؟

يا بني؛ إني أحب لك الخير فساعدني علىٰ إيصال الخير إليك بالطاعة والامتثال لما آمرك به من مكارم الأخلاق.

يا بني؛ الخلق الحسن زينة الإنسان.

الحكايات حبوب تصطاد بها القلوب، كما قال بعض السلف، قد [يعرض] لبعض الناس حال كهذه الحال؛ ولكن مع صدق النية ينقلب إلىٰ ضدِّها، فقد حدثني الشيخ ابن حِنْطي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ أحد أهل العلم في القصيم أنَّه كان يتلقىٰ العلم في الرِّياض، وحصل منه شيئًا كثيرًا حتىٰ أنه قرأ «زاد المستقنع» أربع مرات علىٰ الشيخ محمد بن إبراهيم، فذهب مرَّة لزيارة أهله في شقراء، فلما فرغ من شغله بهم، عنَّ له أن يذهب إلىٰ عُنيزة، لأنه سمع بوجود رجل فيها يقال له ابن سِعدي تُنسب إليه أقوال مخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، قال: فلما فرغتُ من أهلي ذهبتُ إلىٰ حلْقته، فدخلتُ مسجده، قال: فكان من مكابرتي أني لم أجلس في الحلْقة، وإنما جلستُ وراء الحلقة، فلما فرغ من الدّرس بعد الظهر قمتُ معه، فألقيت

---

(١) الله المستعان، هذه الجملة عظيمة، (يا بني إذا لم تتخذني قدوة فبمن تقتدي؟ وعلام تجهد نفسك بالجلوس أمامي؟) بعض الناس تجده يحضر في مجالس أهل العلم ويقول: أنظر فيما يقول، فإن كان عنده غلط رددت عليه، هذا من أعظم الحرمان، فإذا كان صادقًا في الإقبال علىٰ معلِّمه؛ فإن علامة صدقه أن يحرص علىٰ الانتفاع به، وأما حضور المجلس بمثل هذه النيات الفاسدة، فهذه من علامات الحرمان والشقاء.

عليه مسائل في الاعتقاد فوجدتُ إجابتَه موافقة لطريقة أهل السنة والجماعة، قال: وكان قد أخذ بقلبي حُسنُ تعليمه في الدرس، فعلمت أنه محسود، فرجعتُ إلىٰ الرياض، فأخذتُ حوائجي وأغراضي، ولزمتُه حتىٰ مات رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

فهو بنيّته كان في أول أمره فيها دخن، ولكنه كان صادقًا ليعرف هل هذا الرجل موافقا للسنة، أم مخالفا لها، فلما تبيّن له صدقه، تحول للانتفاع به.

﴿﴿◊﴾﴾

يا بني؛ الخلق الحسن زينة الإنسان في نفسه وبين إخوانه وأهله وعشيرته، فكن حسن الخلق يحترمك الناس ويحبوك.

يا بني؛ إذا لم تزين علمك بكرم أخلاقك كان علمك أضرَّ عليك من جهلك، فإن الجاهل معذور بجهله، ولا عُذر للعالم عند الناس إذا لم يتجمل بمحاسن الشِّيم.

يا بني؛ لا تعتمد علىٰ مراقبتي لك، فإن مراقبتك لنفسك أفضل وأنفع من مراقبتي لك.

يا بني؛ قال رسول الله ﷺ : «**إن الله استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء و حسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما**».[1]

الدرس الثاني
في الوصية بتقوى الله العظيم

يا بني؛ إن ربك يعلم ما تكنه في صدرك، وما تعلنه بلسانك، ومطّلع علىٰ جميع أعمالك، فاتق الله يا بني، واحذر أن يراك علىٰ حالة لا ترضيه، احذر أن يسخط عليك ربك الذي خلقك ورزقك ووهبك العقل الذي تتصرّف به في شؤونك، كيف يكون حالك إذا اطّلع عليك أبوك وأنت تفعل أمرًا نهاك عنه؟ أما تخشىٰ أن يشدد عليك العقوبة؟ فليكن حالك مع الله كذلك؛ لأنه يراك من حيث لا تراه. فلا تفرِّط في شيء أمرك به، ولا تمدُد يدك إلىٰ شيء نهاك عنه.

يا بني؛ إن ربك شديد البطش شديد العقاب، فاحذره يا بني واتق غضبه وسخطه، ولا يغرنك حلمه وإن الله يملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلته.

يا بني؛ إن في طاعة الله من اللذة والراحة ما لا يعرف إلا بالتجربة، فيا بني استعمل طاعة مولاك علىٰ سبيل التجربة أيامًا لتدرك هذه اللذّة، وتَشعر بهذه الراحة وتعلم إخلاصي لك في النصيحة.

---

(١) وهو حديث ضعيف، وفي معناه أحاديث كثيرة في فضل السخاء وحسن الخلق.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (يا بني؛ إن في طاعة الله مـن اللّـذّة والراحـة مـا لا يعـرف إلا بالتَّجربـة) أي: مـا لا يعـرف وجدانها في النفس إلا بالتجربة، أما التصديق بها فإن من آمن برسالة محمد ﷺ، علـم صـدقه فيمـا أخـبر عنه من انتفاع الأرواح والأبدان بما جاء به من الطّاعات، وإنّما أراد المصنِّف معنًىٰ خاص وهو وِجـدانها في القلب، فإنّ الإنسان قد يؤمن بأن ذلك الأمر طاعةٌ، ولكنه لا يؤنس حلاوته حتـىٰ يـأتي بـه علـىٰ وجـه كامل؛ فيجد تلك اللذة والراحة.

وهذا معنىٰ قوله: (فيا بني استعمل طاعتك له علىٰ سبيل التجربة) أي: طلـب وجـدان اللـذّة، لا أنـك تقوم بالعبادة مجرِّبًا في ذلك؛ بل تأتي بالعبادة امتثالًا لله ﷻ.

❀❀◊❀❀

يا بني؛ إنك ستجد في طاعة الله ثقلًا علىٰ نفسك أول الأمر، فاحتمل هـذا الثقـل، واصـبر عليـه، حتـىٰ تصير الطاعة عندك من العادات التي تألفها.

يا بني؛ انظر إلىٰ نفسك حينما كنت في المكتب: تتعلم القراءة والكتابة، وتؤمر بحفـظ القـرآن الكـريم غيبًا ألم تكن إذ ذاك تكره المكتب والمعلم؟(١) وتتمنىٰ أن تكون مطلق السراح فها أنت اليـوم قـد بلغـت الدرجة التي عرفت بها فائدة الصبر علىٰ التعلم في المكتب.

وعلمت أن معلمك كان ساعيا في مصلحتك فيـا بنـي اسـمع نصـيحتي، واصـبر علـىٰ طاعـة الله كمـا صبرت علىٰ التعلم في المكتب، وسوف تعلم فائدة هذه النصيحة، وتظهر لك جليًّـا إذا سـاعدتك العنايـة الإلهية علىٰ العمل بنصيحة أستاذك.

يا بني؛ إياك أن تظنّ أن تقوىٰ الله هي الصـلاة والصـيام ونحوهمـا مـن العبـادات فقـط، إن تقـوىٰ الله تدخل في كلِّ شيء فاتق الله في عبادة مولاك لا تفرِّط فيها، واتق الله في إخوانك لا تؤذ أحـدًا مـنهم، واتـق الله في بلدك ، لا تخنه ولا تسلط عليه عدوًّا، واتق الله في نفسك لا تهمـل في صـحتك، ولا تتخلـق بسـوىٰ

(١) المكتب يعني أيش؟ كتّاب؛ يعني: دار حفظ القرآن، دار حفظ القرآن هـي التـي تسـمىٰ مكتبًـا، وأمـا الحلْقة فهي لما فوق ذلك، الحلقة لتلقي القراءة الكاملة برواية أو أكثر.

والأصل في تسميتها أن تنسب إلىٰ معلميها، فيقال: مكتب فلان أو حلقة فلان، هكذا كان في عرف السلف رحمهم الله تعالىٰ، وهو أسلم في ذلك من الوقوع في المحذور.

وللفائدة، المكتب الذي هو المكان الذي يعد لتعليم القرآن هذا موجود من عهد الصحابة، قد ثبت في ذلك آثار عن لابن عمر وغيره.

الأخلاق الفاضلة.

يا بني؛ قال رسول الله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**».

الدَّرس الثالث

في حقوق الخلاق العظيم وحقوق رسوله ﷺ

يا بني؛ إن الله تبارك وتعالىٰ هو الذي خلقك وأوجدك وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، ألم تعلم أنك في أول أمرك كنت نطفة في بطن أمك، فما زالت تتقلب في نعمة ربك ورحمته حتىٰ ولدتك إنسانا كاملًا، ووهب لك لسانًا تتكلم به وعينًا تبصر بها، وأذنًا تسمع بها وعقلًا تدرك به ما يضرك وما ينفعك، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾[النحل]، أليس الذي وهبك هذه النعم تفضلا منه وإحسانا قادرًا علىٰ سلبها إذا أغضبته فغضب عليك؟ يا بني أول واجب عليك لخالقك جلّ شأنه هو أن تعرفه بصفاته الكمالية، وأن تكون شديد الحرص علىٰ طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأن تعتقد اعتقادًا جازمًا أن الخير فيما يختاره الله لك لا فيما تختاره أنت لنفسك، فلا تصدنّك عن طاعة مولاك وعبادته الشهوات والملاهي، ولا طاعة أحد من المخلوقات عظيمًا كان أو حقيرا.

يا بني؛ من لطف الله بعباده إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لإرشاد الخلق وهدايتهم إلىٰ ما يصلح شأنهم في دينهم ودنياهم، وآخر الرسل هو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب العربي الهاشمي ﷺ، فكما تجب عليك طاعة مولاك الذي خلقك تجب عليك طاعة رسوله الأكرم ﷺ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾[النساء:٥٩]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾[الفتح].

يا بني؛ إن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ، فكل أوامره ونواهيه مستندة إلىٰ الوحي الإلهي، فطاعته ﷺ من طاعة الله جلّ شأنه، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾[آل عمران].

يا بني؛ لا يكمل إيمان العبد حتىٰ يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**».

منزلة محبة الله ورسوله ﷺ من الإيمان لها درجتان:

الأولىٰ: ما يتعلق بأصل الإيمان، وحقيقته ميل القلب إلىٰ موافقة مرضاتهما وامتثال خطابهما وتعلقه بهما.

والثاني: ما يتعلق به كمال الإيمان، وهو تقديم مرضاتهما علىٰ داعي النفس والهوىٰ.

وهذا الثاني هو الذي أراده المصنف بقوله: (لا يكمل إيمان العبد)، فإنه في هذه الحالة الثانية يكون من كمال الإيمان، أما بالنَّظر إلىٰ أصل ميل القلب إلىٰ امتثال خطابهما وموافقة مرضاتهما، تعلُّقه بذلك تعظيمًا لهما فهذا شيءٌ من أصل الإيمان.

الدّرس الرابع
في حقوق الوالدين

يا بنيّ؛ مهما تكبَّدت من المشقّات في خدمة أبيك وأمك، فإنَّ حقوقهما عليك فوق ذلك أضعافًا مضاعفة، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝﴾[الإسراء].

يا بني؛ انظر إلىٰ الطفل الصغير وإلىٰ إشفاق أبويه عليه واعتنائهما بصحته وطعامه وشرابه وملاذِّه في ليله ونهاره وصحته وسقمه، تعلم مقدار ما قاسىٰ أبواك في تربيتك حتىٰ بلغت مبلغ الرِّجال.

يا بني؛ إنك في هذه الساعة -التي وفقني الله لأن أتولىٰ إرشادك فيها- لا تزال تتقلَّب في نعمة أبيك الذي يواليك بالنفقة بما في وُسعه، ولا يضِنُّ عليك بما في طاقته، لولا أبواك ما استطعت أن تجلس هذا المجلس بين طلاب العلم الشريف.

يا بني؛ كل إنسان يحب أن يكون رفيع القدر، عظيم الجاه، محبوبًا عند الله وعند الناس، ويتمنىٰ أن يكون مقامُه فوق كل مقام، لكن الوالد يحب لولده أن يكون أرفع منه منزله وأكبر منه مقامًا وأعز منه جاها، فبماذا يجب أن تعامل من يقدمك علىٰ نفسه ويتمنىٰ لك أكثر مما يتمنىٰ لها؟

يا بني؛ احذر كل الحذر أن تغضب أباك أو تغضب أمك، إن غضب الله مقرون بغضب الوالدين، ومن غضب الله عليه فقد خسر الدنيا والآخرة.

يا بني؛ أطع أباك وامك ولا تخالفهما في شيء، إلا إذا أمراك بمعصية مولاك، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤﴾[لقمان]، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾[لقمان].

يا بني؛ إن أشد الناس حبًّا لك هو أبوك الذي تولّىٰ تربيتك صغيرا، وسلك طريق الرشاد في تعليمك حتىٰ صرت من طلاب العلوم الدينية، فاحرص علىٰ قبول نصائحه فهو أدرىٰ منك بما يُصيبك، وما ينفعك وما يضرك، والله يتولىٰ هدايتك وإرشادك وصلاحك.

الدرس الخامس

في حقوق الإخوان

يا بني؛ ها أنت قد أصبحت من طلبة العلم الشريف ولك رفقاء في درسك هم إخوانك، وهم عشيرتك، فإياك أن تؤذي أحدًا منهم أو تسيء معاملته.

يا بني؛ إذا جلست للدرس فلا تضايق أحدًا من إخوانك، وافسح له في المكان حتىٰ يتمكن من الجلوس، فإن مضايقة الإخوان في مجالسهم توغر الصدور وتولد الأحقاد وتثير الشرور، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾[المجادلة].

يا بني؛ إذا أشكلت مسألة علىٰ أحد إخوانك في درسه، وطلب من الأستاذ إيضاحها له، فاستمع لما يقوله أستاذك في الجواب، لعلك تستفيد من الإعادة فائدة لم تكن تعرفها.

وإياك ثم إياك أن تتكلم بكلمة تدلُّ علىٰ احتقاره، أو أن يظهر علىٰ وجهك ما يُفيد الاستخفاف بأفكاره، يا بني قيل للإمام أبي حنيفة ﷺ: بم بلغت ما بلغت من العلم؟ قال: (ما بخِلت بالإفادة وما استنكفت عن الاستفادة).[1]

فيا بني؛ لا تضيق علىٰ إخوانك طريق العلم إذا طلبوا من أستاذهم تحقيق مسألة لم يعرفوها حق المعرفة، وشاركهم في الاستماع إلىٰ ما يقول الأستاذ إن كنت تريد الخير لنفسك.

يا بني؛ إن لك من إخوانك من يشاركك في المسكن والمبيت، فاحرص علىٰ راحة إخوانك في مساكنهم، وإذا جاء وقت النوم فلا تزعجهم بالمطالعة والمذاكرة، واطلب لهم من الراحة ما تطلبه لنفسك، فإذا طلع الفجر واستيقظت لأداء فريضة الصلاة فأيقظ إخوانك برفقٍ ولطف وحافظوا علىٰ الصلاة في جماعة، فإنّ صلاة الجماعة أفضل من الصلاة أفذاذًا.

يا بني؛ إذا استعان بك أحد إخوانك علىٰ عمل لا يستطيع القيام به وحده، فلا تبخل بمساعدته، وإياك أن تُظهر له أنك صاحب الفضل عليه بهذه المساعدة.

---

(١) قوله: (ولا استنكفت عن الإفادة)، أي ما أعرضت مستكبرًا عن الاستفادة، والاستنكاف الإعراض تكبرًا.

يا بني قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**».

الدرس السادس

في آداب طلب العلم الشريف

يا بني؛ أقبل علىٰ طلب العلم بجد ونشاط واحرص علىٰ وقتك أن يذهب منه شيء لا تنتفع فيه بمسألة تستفيدها.

يا بني؛ طالع دروسك المقررة عليك مطالعة جيدة قبل استماعها من الأستاذ في مجلس الدرس، وإذا أشكل عليك الأمر في مسألة من المسائل فلا تستنكف من عرضها علىٰ أحد إخوانك لتشترك معه في فهمها، ولا تنتقل من مسألة إلىٰ أخرىٰ قبل فهم الأولىٰ فهمًا جيدًا، وإذا أجلسك الأستاذ في مكانك الذي عينه لك من الدروس فلا تجلس في غيره، وإذا تعدىٰ عليك أحد إخوانك بالجلوس فيه فلا تنازعه ولا تشاتمه، وارفع الأمر إلىٰ أستاذك حتىٰ يقيمه ويجلسك في مكانك المعين.

يا بني؛ إذا شرع الأستاذ في قراءة الدرس فلا تتشاغل عنه بالحديث، ولا بالمناقشة مع إخوانك، وأصغ إلىٰ ما يقوله الأستاذ إصغاءً تامًّا، وإياك أن تشغل فكرك بشيء آخر من الهواجس النفسية أثناء الدرس، وإذا أشكلت عليك مسألة بعد تقريرها فاطلب من الأستاذ بالأدب والكمال إعادتها، وإياك أن ترفع صوتك علىٰ أستاذك أو تنازعه إذا أعرض عنك ولم يلتفت إلىٰ قولك.

يا بني؛ إذا خرج التلميذ عن حد الأدب بين يدي أستاذه سقطت قيمته عند أستاذه وعند إخوانه، واستحقّ التأديب والزجر علىٰ قلة أدبه.

يا بني؛ إذا لم تحترم أستاذك فوق احترامك لأبيك لم تستفد من علومه ولا من دروسه شيئًا.

يا بني؛ زينة العلم التواضع والأدب، فمن تواضع لله رفعه، وحبّب فيه خلقه، ومن تكبر وأساء الأدب سقط من أعين الناس، وبغضه الله إليهم، فلا يكاد يجد إنسان يُكرمه، أو يشفق عليه.

يا بني؛ لا شيء أمر علىٰ طالب العلم من غضب الأساتذة والعلماء، فإياك -يا بني- أن تظلم أحدا من المدرسين أو تسيء الأدب أمامه، فإن أقل ما ينتجه غضب الأساتذة الحِرمان والقطيعة، فاقبل -يا بني- نصيحتي لك، والتمس رضوان مشايخك واسألهم الدعاء لك بالفتح، عسىٰ الله أن يستجيب دعاءهم لك، وإذا خلوت بنفسك فأكثر من الدعاء والابتهال إلىٰ الله تعالىٰ أن يرزقك العلم النافع والعمل به، إن ربك سميع الدعاء واسعُ الكرم والجود.

الدّرس السابع
في أدب المطالعة والمذاكرة والمناظرة

يا بني؛ إن أردت الخير لنفسك فلا تطالع درسك وحدك واتخذ لك صديقا من إخوانك، يشارك في المطالعة ويُعينك علىٰ الفهم؛ فإذا مررت بمسألة وظننت أنك فهمتها فلا تكتفي بظنك حتىٰ تدع الكتاب من يدك وتقرّرها لنفسك، أو لمن معك؛ كأنك تلقي درسا علىٰ المتعلمين.

يا بني؛ تأدب مع أخيك الذي تختاره للمطالعة، وإذا فهمت قبله فلا تفتخر عليه بالسبق، وإذا عارضك في فهم مسألة فاستمع لما يقول، فربما يكون الحق معه وأنت مخطئ في فهمك، وإياك والمجادلة بالباطل والانتصار لرأيك إن كان خطأ، فإن العلم أمانة ومن انتصر للباطل فقد ضيَّع أمانة الله.

يا بني؛ أكثر من المذاكرة لما حصلت من العلوم، فإن آفة العلم النسيان، واعلم أنك في نهاية العام ستمتحن في كل معلوماتك، وعند الامتحان يكرم المرء إذا أحسن الإجابة، ويَستهين به أهله وإخوانه إذا لم يحسن الجواب، وظهر أنه مفرِّط في التحصيل.

يا بني؛ إياك أن تكون مذاكرتك عبارة عن حفظ ألفاظ لا تعقل معناها، ولكن اجعل همَّتك موجهة إلىٰ تعقل المعاني وتثبيتها في ذهنك، فإن العلم هو ما تفهمه لا ما تحفظه.

يا بني؛ كلما اجتمع طالب مع زمرة من إخوانه إلا كان مدار المحاورة بينهم علىٰ المناظرة والمفاوضة في المسائل التي يعرفونها، فلا تقطع علىٰ متكلِّم حديثه، ولا تتسرع بالإجابة قبل التثبت، ولا تنازع في مسألة لم يسبق لك الاطلاع عليها، ولا تجادِل بغير الحق، ولا تظهر العظمة علىٰ من يناظرك، ولا تخرج عن موضوع المناظرة إلىٰ تسفيه رأي مناظرك، ولا إلىٰ تقريعه بالكلام المؤلم، ولا إلىٰ توبيخه إذا ظهر خطؤه في الفهم.

يا بني؛ المحاورة بين الطلاب في المسائل العلمية جزيلة الفوائد، تقوي الفهم وتطلق اللسان، وتعين علىٰ حسن التعبير عن الأغراض المقصودة، وتولِّد في الطالب الجرأة والإقدام؛ ولكن يا بني لا ينفعك هذا عند الله ولا عند الناس إلا إذا كنت مهذَّب الأخلاق، بعيدًا عن الفحش في القول تقول الحق ولو علىٰ نفسك، ولا تأخذُك في الحق لومة لائم.

الدرس الثامن
في آداب الرياضة والمشي في الطرقات:

يا بني؛ إنك في بعض أوقات فراغك لا تستغني عن الرياضة البدنية حتىٰ يتجدد نشاطك لمزاولة دروسك، فإذا خرجت للرياضة فاقصد الأماكن الجيدة الهواء من الضواحي، وعليك السكينة والوقار

فلا تسرع في مشيتك ولا تمازح أحدًا في طريقك ولا تضحك إلا بقدر التبسم.

يا بني؛ إذا خرجت للرياضة أو لغيرها مع إخوانك، فإياكم أن تعترضوا أحدا من المارة في الطرقات، وإياكم أن تصطفوا في طريق العامة فإن كان الطريق واسعًا فامشوا مثنىٰ مثنىٰ، وإلا فامشوا فرادىٰ واحدا فواحدًا.

يا بني؛ إن الطرق العمومية ليست مملوكة لأحد، وإنما لكل مارٍّ حق المرور فيها، فلا تزدحموا في الطرقات فإن ذلك يُزري بطلبة العلم الشريف، ويذهب باحترام الناس لهم.

يا بني؛ إذا رأيت في طريقك غوغاء أو فئة يضرب بعضها بعضا؛ فإياك أن تعرِّج عليهم أو تقترب منهم، فربما كان ذلك سببًا لإهانتك أو اتهامك بشيء أنت منه بريء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا رأيت في طريقك غوغاء)، الغوغاء هم السفلة من الناس، المتسرعون إلىٰ الشر، سموا بذلك لغلبة أصواتهم وارتفاعها، ولأجل ما يبْدر منهم من جلبة في الصوت سموا بالغوغاء.

ﮂﮂ ◈ ﮃﮃ

يا بني؛ إذا تعدىٰ عليك أحد في طريقك من عامة الناس فلا تقابل العدوان بمثله، واعف عمَّن ظلمك يرفع الله قدرك، ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[الشورىٰ:٤٠]، بهذا الخلق الجميل أدبنا الله في كتابه العزيز.

يا بني؛ إذا خرجت من المسجد أو من المسكن لشراء شيء تحتاج إليه من طعام أو شراب أو كسوة أو نحو ذلك، فلا تتعرّض لمنازعة السفهاء، ولا تعرض نفسك لسماع ألفاظهم البذيئة، وابتعد عن هؤلاء القوم جَهدك وإياك والمماحكة مع الباعة في تقدير الأثمان، فإن وافقك الثمن اشتريت، وإلا فانصرف بسلام، وإياك أن تتعرض للباعة بقصد المساومة فقط دون الشِّراء، فإن ذلك يدعوهم إلىٰ إسماعك ما تكره من كلمات التَّقريع والازدراء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإياك والمماحكة مع الباعة في تقدير الأثمان)، أي احذر الملاحاة واللجج معهم في مراجعتهم في أثمان ما تريد من سلعهم، وليس هذا هو مماكستهم أي مراجعتهم في السعر، فإن هذا مشروع مأذون به شرعًا، وإنما الممنوع منه هو أن تنقلب تلك المراجعة إلىٰ ملاحاة ولجج وخصومة.

ﮂﮂ ◈ ﮃﮃ

يا بني؛ إذا حدثت إنسانًا فلا ترفع صوتك إلا بمقدار ما تُسمعه، وكن لطيف القول حسن الحديث، واحذر أن تتكلم بكلمة ينقص بها قدرك عند من تحدِّثه، ولو كان من أمثالك في السن والمنزلة، وإذا حدثك إنسان فأحسن الاستماع له، ولا تقابله بالغلظة والفظاظة، وخالِق الناس بخلق حسن.

الدرس التاسع

في أدب المجالس وأدب المحاضرة

يا بني إذا مررت بقوم فأقرئهم السلام باللفظ المعروف الذي وردت به السنة النبوية؛ وهو قولك: السلام عليكم، ولا تتجاوز هذه التّحية إلىٰ غيرها من المستحدثات، ولا تدخل مجلس قوم إلا بعد الاستئذان، فربّما كانوا يتفاوضون في أمرٍ لا يحبُّون أن يشاركهم فيه غيرهم، وتجنَّب التطفُّل علىٰ الناس جهدك، فإنَّ الطُّفيليّ ثقيلٌ علىٰ النفوس وإن كان أعلم أهل عصره.

يا بني؛ انظر إلىٰ نفسك إذا كنت في بيتك مثلًا تعمل عملا تحبُّ أن لا يطلع عليه أحد غيرك، ففاجأك إنسان بالدخول عليك ألست تحس بثقله وتتمنىٰ ذهابه؟ فكذلك حالك إذا غشيت قومًا بدون استئذان ولا رغبة منهم في وجودك معهم.

يا بني؛ إذا دُعيت لمجالسة قومٍ وكنت أصغرهم سنًّا فلا تجلس حتىٰ يأذن لك القوم بالجلوس، وإذا جلست فلا تزاحم أحدًا من جلسائك، ولا تضطرّ جالسًا إلىٰ أن يترك مجلسه لأجلك، ولا تتقدَّم إلىٰ موضع رفيعٍ إذا كان في المجلس من هو أحق منك بالجلوس فيه، وإذا جلست في موضع ثم جاء من هو أولىٰ منك بالجلوس فيه فاترك له ذلك الموضع قبل أن تؤمر بالتنحِّي عنه، يزد احترامك في أعين جلسائك.

يا بني؛ إذا جلست في قوم فلا تدخل معهم في حديثهم حتىٰ يُدخلوك، ولا تتكلم وفي القوم من هو أولىٰ منك بالكلام، وإذا تكلَّمت فلا تقل إلا حقًّا، ولا تتوسع في المقام إلا بقدر إقامة الحجة، ولا تناقش جلسائك إلىٰ بالأدب والتحفُّظ من عثرات اللسان، وإياك والقهقهة في المجالس، فإنّها من أخلاق السفلة، ورعاع الناس، وأقلل من المزاح جهدك، فإنّ كثرة المزاح تذهب بالاحترام، وربما أوغرت صدور بعض الناس عليك.

يا بني لا تجالس من الناس إلا أهل المروءة والشَّرف، والعفّة والكمال، وإياك ومخالطة السفهاء ومجالستهم، واحذر مجالس الغِيبة والنميمة جهدك، ولا تجالس أحدًا من الفساق والفجار، وإياك ومعاشرة أهل الخُبْث والدسائس والنفاق، فإنَّ الأخلاق السيئة تسري في الجلساء كما تسري النار في الحطب.

الدرس العاشر

في آداب الطّعام و الشراب

يا بني؛ إذا كنت تريد أن تعيش صحيح البنية سليمًا من الأمراض فلا تدخل في معدتك طعاما علىٰ

طعام، ولا تأكل إلا إذا كنت جائعًا، وإذا أكلت فلا تملأ بطنك من الطعام، قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه».

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فلا تدخل في معدتك طعامًا علىٰ طعام)، أي لا تتناول طعامًا مرة ثانية بعد شِبَع في المرة الأولىٰ، فإذا طعم الإنسان وشبع لم يحسن به أن يأكل ثانية؛ لأن ذلك يورث العلّة، أما إذا أكل يسيرًا ثم أكل بعد ذلك ثانية، فليس هذا عند الأطباء بمنهي عنه.

❁❁◈❁❁

يا بني؛ إذا كانت بك حاجة إلىٰ الطعام فاغسل يديك أولًا، واذكر اسم الله علىٰ طعامك، ولا تبتلع الطعام ابتلاعًا؛ ولكن امضغ اللقمة مضغًا جيدًا، فإن جودة المضغ تعين علىٰ الهضم، وكل مما يليك، ولا تذهب يدك في الإناء هاهنا وهاهنا، فإن ذلك من الشَّره الممقوت.

يا بني؛ إياك أن تفعل كما يفعل السفلة ورعاع الناس، فلا تأكل في الأسواق ولا علىٰ قارعة الطريق، ولو علىٰ سبيل التفكُّه فإن ذلك يسقط المروءة، ويزري بأهل الفضل.

يا بني؛ إياك والبخل وإياك والشَّره(١)، فإذا جلست وبجانبك إنسان تعرفه أو لا تعرفه فادعه لمؤاكلتك، وإذا بقيت منك بقية فتصدق بها علىٰ أهل الحاجة، ولا تستصغر شيئا تتصدق فإن للقليل من الصدقة موضعًا لا يستغني عنه الفقراء، إذا تصدقت علىٰ فقير فلا تزدره ولا تُتبع صدقتك بأذىٰ من تصدقت عليه، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[البقرة:٢٦٣]، واجتهد أن تُخفي صدقتك عن الناس فإن صدقة السِّر تطفيء غضب الله تعالىٰ.

يا بني؛ اتق الأكل والشرب في الأواني القذرة، فربما جلبت لنفسك من الأمراض بقذارة الأواني ما لا ينفعك فيه طبّ الطبيب، ولا علاج الحكيم، ولا تشرب من الماء إلا ما كان نقيًّا من الأدران، وإذا شربت فسم الله قبل أن تشرب ولا تشرب الماء عبًّا ولكن اشربه مصًّا، قليلًا قليلًا، واسترح في شربك وليكن ثلاث مرات، تفصل بين كل مرة وأخرىٰ بذكر اسم الله تعالىٰ، وإذا فرغت من الطعام والشراب فاحمد الله الذي أطعمك وسقاك، واشكره علىٰ نعمه التي لا يحصيها العد، والله يتولىٰ هدايتك وإرشادك.

الدرس الحادي عشر

في آداب العبادة وآداب المساجد

يا بني؛ إياك والتَّفريط في عبادة ربك، فإنه يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

---

(١) قوله رحمه الله: (إياك والشره)؛ الشره: شدة الطمع وقوة الرغبة في الشيء، ومنه الشَّره في الطعام.

﴿٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾[الذاريات].

يا بني؛ كن حريصًا علىٰ أداء الصلاة المفروضة في وقتها مع الجماعة، فإذا اقترب الوقت فبادر إلىٰ الوضوء، ولا تزاحم أحدًا في طريقك، ولا تسرف في استعمال الماء، فإذا دخل الوقت وأذَّن المؤذن فاستقبل القبلة، وصل السنة القبلية، واجلس في سكينة ووقار حتىٰ تقام الصلاة، فصلِّ مع الجماعة بخشوع وخضوع، واعلم أنك في حال الصلاة تناجي ربك، وأنت واقف بين يديه، وإياك وهواجس الشيطان، وإياك والتضاحك في حضرة مولاك، وإياك واشتغال القلب بغير مناجاة الرحمن.

يا بني؛ إذا فرغت من الصلاة المفروضة فصل السنة البعدية، وادع الله بما تيسر من صالح الدعوات، واستغفر ربك كثيرًا، واسأله الفتح فإنه هو الفتَّاح العليم.

يا بني؛ إن استطعت إن لا تجلس إلا في المسجد إلا وأنت علىٰ وضوء فافعل، فإن المساجد بيوت الله، وليس من الأدب أن تدخل بيت ربك وأنت علىٰ غير استعداد لعبادته.

يا بني؛ إن عامة المسلمين ينظرون إلىٰ طلبة العلم الشريف نظر الاحترام، ويستعظمون كل صغيرة تقع منهم، فإياك يا بني أن تسلِّط ألسنة العامة علىٰ نفسك، لا ترفع صوتك في المسجد فإن ذلك من العامِّي قبيح، وهو من طلبة العلم الشَّريف أقبح وأشد نكرًا، ولا تخاصم أحدًا من إخوانك ولا تنازعه، ولا تضيِّق علىٰ مسلم يريد أن يتعبد في بيت مولاه.

يا بني؛ إن العامي إذا دخل المسجد فالأجدر بك وبه أن يتعلم منك الأدب والخشوع، لا أن تسيء الأدب فيتولّىٰ نصحك وإرشادك.

فيا بني؛ لا تضيع شرف العلم بإساءة الأدب في بيوت الله، ولا تسلط ألسنة العامة علىٰ إخوانك، وإذا رأيت من أحدِ المصلين شيئًا تكرهه فعامله بالإحسان واللُّطف، وإذا شئت أن ترشده إلىٰ حكم شرعي فلا تغلظ عليه القول، ولا تنفره من التفقه في الدين، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

الدرس الثاني عشر

في فضيلة الصدق

يا بني؛ احرص علىٰ أن تكون صادقًا في كل ما تحدث به غيرك حرصك علىٰ نفسك ومالك، فإن الكذب شر النقائص والمعايب.

واحذر يا بني أن تشتهر بين إخوانك وأساتذتك بالكذب، فلا يصدقك أحد فيما تقول وإن كان حقًّا.

يا بني؛ إذا فعلت أمرًا تستحق عليه عقوبة من أستاذك فلا تكذب عليه إذا سألك، ولا تحاول إلصاق

الذَّنب بأحد من إخوانك، فربما قام البرهان علىٰ كذبك فتستحق العقوبة مضاعفة، عقوبة الذَّنب وعقوبة الكذب، وهيهات أن تُنجيك هذه العقوبة من عقوبة ربك الذي يعلم ما تكنُّه في صدرك.

يا بني؛ إن الله تعالىٰ قد لعن الكاذبين في كتابه العزيز، فهل ترضىٰ أن تكون ملعونًا عند الله وأنت من طلبة العلوم الدينية؟

يا بني؛ إذا كذبت مرة ونجوت حيث لا يوجد شاهد عليك، فقلما تنجو في غيرها إذا ظهر كذبك بشهادة من رآك.

يا بني؛ إذا لم تخف من الناس إذا كذبت عليهم، ألا تخاف من مولاك الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟

يا بني؛ إذا كذب المرء مرة تعوّد لسانه الكذب، فلا يكاد يصدق في حديث ولا في مقال، فاحرص كل الحرص علىٰ تحري الصدق فيما يجري علىٰ لسانك، وإياك أن تقع في أكذوبة ولو كان فيها ذهاب نفسك.

من لطائف التأديب في ترك الكذب ما ذكر لي شيخنا عبد الرحمن بن أبي بكر الملا رَحِمَهُ اللهُ: أنه لما كان صغيرًا ابن ثلاث سنين وقريبًا من هذا السن كان أبوه يأخذ عصًا صغيرة ويضرب علىٰ يده ضربًا لطيفًا ويقول له: لا تكذب، لا تكذب، لا تكذب، يقول: فلا يزال صوته في أذني حتىٰ نفرت من الكذب نفورًا شديدًا قبل أن أعرفه.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

يا بني؛ هذه وصيتي لك، فإن كنت من أهل الصدق كما هو شأن طلبة العلم الشريف فعاهدني علىٰ ألا تكذب في حديثٍ قط، وقل: علي عهد الله وميثاقه ألا أكذب علىٰ أحد ما عشت، وستظهر لنا الأيام مقدار احتفاظك بهذا العهد الذي عاهدت الله عليه بين يدي أستاذك وأمام إخوانك.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

هذه الجملة من كلام المصنف، فيها نظر، ما وجهه وما بيانه؟

وجهه المعاهدة علىٰ ملازمة الطاعة وترك المعصية، عقد العهد علىٰ ذلك، ما بيانه؟ ما حكم عقد العهد علىٰ ملازمة الطاعة وترك المعصية بين اثنين أو أكثر؟ هذه المسألة.

يقول الأخ: فإنها لم تكن معروفة عند السلف مع شدة حرصهم علىٰ الخير.

جواب آخر؟

أن المسلم بإسلامه ملتزم بهذا قبل حاجته إلىٰ معاهدة، يعني تحصيل حاصل؛ لأن ذلك متقرر شرعًا

بأنه مأمور بفعل الطاعة وترك المعصية.

هذه طريقة في التصوف، شيبانا يقول لنا: عاهدني على أن لا تترك الصلاة وما يعرفون التصوف، هذا منتشر عند الناس.

شبيه بالاعتراف أمام القسس عند النصارى بالذنوب.

يقول الأخ: المعاصي يقع فيها كل الناس، فالمعاهدة عليها شيء من المشقة، لكن أصل المعاهدة في كلام العرب على ماذا؟ **على العظيم أم على الحقير؟ على العظيم، ليس كل شيء يعاهد عليه.**

بيان المسألة أن يقال: إن المعاهدة على ترك المعصية وملازمة الطاعة نوعان:

النوع الأول: اقترانها بالبيعة المُلزمة بالسمع والطاعة، وهي التي تسمّى **بيعة التوبة**، ولا أصل لها في الشرع، وإنما البيعة التي تكون في الشَّرع هي بيعة السمع والطاعة لولي الأمر.

والثاني: أن لا تكون مقترنة بالبيعة، ولها حالان:

الحال الأولى: **أن تكون معاهدة مجردة من النذر واليمين، فهذه جائزة**؛ كأن يتعاهد اثنان بينهما على أن يحافظ على صلاة الفجر، فيقول أحدهما للآخر: نتعاهد، أي نبرم بيننا عهدًا بأن لا نترك صلاة الفجر؛ فهذا جائز.

والحال **الثانية**: **أن تكون مقرونة بالنذر أو اليمين، وحكمها الكراهة**، لما في ذلك من تعريض حرمة الحلف واليمين للهتك، فإن كانت مع من يغلب الظن، أو يقطع أنه يعود لذنبه حرمت، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩] ، ويقول: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٤]، .

المسألة واضحة؟ يعني لو جاء واحد ورأى إنسانا على معصية، قال: أبْغِك تعاهدني على أن تترك هذه المعصية، فإنها لا تليق بك، فقال: أعاهدك على أن لا أعود إليها، هذا حكمه الجواز.

فإن قال له: عاهدني بالله، أعطني عهدا بالله أن لا تعود، فقال أعاهدك بالله، أو عليّ نذر إن عدت إلى هذه المعصية، فهذا مكروه.

وإن كان من يتوجّه إليه بالطلب في ذلك يغلب على الظّن أو يقطع الإنسان بأنه يرجع، صار ذلك محرّمًا وإن اقترنت بالبيعة، صارت محرمة من جهة أن البيعة الشرعية ليست إلا بيعة الولاية، أما بيعة التوبة، فلا أصل لها في الشرع، والأدلة التي يذكرها المثبتون لها إنما تتعلّق ببيعة الولاية، بالسمع والطاعة لولي الأمر.

للفائدة: هذا كان عند الناس أول عظيم، لذلك يوجد في العامة عندنا؛ لكن كانوا يقدرون مثل هذا العهد، قد ذكر لي رجل أنه أنبئ عن رجل أنه يفعل أشياء تُغضب الله وهو مسؤول عنه، قال: فنما إلي مرة أنه علىٰ تلك الحال، قال: فذهبتُ إليه، وهو قادر علىٰ أن يؤذيه؛ فقال: قلت له يا فلان إني قد اطلعت علىٰ حالك، وأريد أن تعاهدني أن لا تعود إليه.

قال: فعاهدني فما عاد إليه أبدًا، يعني قال: لك عهدًا أن لا أرجع لهذه المعصية، هذا يدلّ علىٰ صدق الرجولة، أما الذي يعاهد ويرجع، يعاهد ويرجع هذا دليل علىٰ ضعف رجولته.

❧❧◈☙☙

يا بني؛ إن بعض الناس ممن لا خلاق لهم يتخذون الكذب مزاحًا، فاحذر أن تكذب علىٰ الناس حتىٰ إذا سئلت قلت: إنما كنت مازحًا، فلا تكذب في جدّ ولا في هزل، ولا تعوّد لسانك علىٰ غير الحق والصدق.

واعلم أن الذي يعرف بالصدق بين قومه وعشيرته وإخوانه يؤخذ قوله حجة بلا برهان، ويكون موضع عدالة عند العامة والخاصة، فإن كنت تحبّ أن تكون موثوقًا بك فاحرص علىٰ تكون صادقا في كل ما تحدّث والله يتولىٰ هدايتك وإرشادك إلىٰ الصواب.

الدرس الثالث عشر
في فضيلة الأمانة

يا بني؛ الأمانة من أجمل ما يتحلىٰ به الإنسان من الفضائل، وضدها الخيانة، وهي من أقبح الرذائل التي تشين الإنسان وتحط من قدره، الأمانة -يا بني- حلية أهل الفضل وزينة أهل العلم، وهي مع الصدق من صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فيا بني كن أمينًا ولا تخن أحد في عرض ولا في مال ولا في غيرهما، إذا ائتمنك أحد إخوانك علىٰ ماله فلا تخنه، وردّه إليه بمجرد طلبه، وإذا ائتمنك علىٰ سره فلا تخنه ولا تفشه إلىٰ أصدق صديقٍ لك وأعز عزيز عندك.

يا بني؛ إن لك إخوانا يشاركونك في المسكن ولهم أمتعة تركوها في مسكنهم اتّكالا علىٰ أمانتك، فلا تمدد يدك إلىٰ شيءٍ من ذلك في غيبتهم، ولا تمكن أحدًا من قربانها إذا كنت حاضرًا وهم غائبون.

يا بني؛ احذر أن تكون متَّهما بين إخوانك بالخيانة، فكلّما ضاع منهم شيء اتهموك به، ونسبوا إليك سرقته، وإن كنت بريئا.

يا بني؛ كن أمينا في كل شيء، وفي كل صغيرة وكبيرة، وإيّاك أن تحدث نفسك بالخيانة في عظيم أو

حقير، فلا تفتح محفظة أخيك ولا صندوق أمتعته في غيبته لمجرد الاطلاع علىٰ ما فيهما، فإن ذلك من الخيانة، ولا تتجسس علىٰ إخوانك فإن ذلك من الخيانة، ولا تصغي بأُذِنك إلىٰ اثنين يتساران، فإن ذلك من الخيانة، ولا تطلع علىٰ خطاب باسم غيرك، فإن ذلك من الخيانة.

يا بني؛ إياك والمزاح بالخيانة، فلا تختلس من أحد إخوانك شيئًا علىٰ سبيل المزاح لتردّه إليه إذا تفقده، فإن ذلك يدعو إلىٰ سوء الظن بك، واتهامك بما أنت منه بريء، وربما رسخ في ذهن البعض أنك من أهل الرِّيبة وهيهات أن تنزع هذا الظن من قلوبهم.

يا بني؛ لا تخن نفسك، ولا تخن أحدًا من الناس، إن من خيانتك لنفسك أن يسألك الأستاذ ليمتحنك فتنظر في الكتاب اختلاسًا ثم تجيبه، كأنك عالمٌ بما سئلت عنه ومن خيانتك لنفسك أن تجلس مجلس الامتحان، فإذا عجزت عن الجواب اختلست مسوّدة أخيك لتكتب منها أو سألته همسًا ليجيبك.

هذه يا بني خيانة وجهلة معًا وغش أيضًا، فليتك إذ كنت جاهلًا لم تكن خائنًا ولم غشاشًا، فاتق يا بني الوقوع في مثل هذا واجتهد في درسك، تتعلم العلم وتسلم من الخيانة والغش، والله يتولَّىٰ هدايتك وإرشادك.

الدرس الرابع عشر
في فضيلة العفة

العفة -يا بني- من أخلاق الأخيار ومن صفات الأبرار، فاحمل نفسك علىٰ التخلق بها، حتىٰ تصير ملكة راسخة فيك، من العفة أن تكون قنوعًا، لا تضن بطعامك وشرابك علىٰ ذوي الحاجات، ولا علىٰ أحد من إخوانك، ومن العفة أن لا تطَّلع إلىٰ ما في أيدي الناس، فلا تطمح نفسك إلىٰ التوسع في المآكل والمشارب، واللذائذ الفانية.

يا بني؛ من العفة أن تقاوم نفسك وهواك فلا تنقاد لهما إذا حملاك علىٰ طلب شيء من اللذات القبيحة التي يتسارع إليها أهل الفساد، وينهمك في طلبها الأشرار والفُجار.

يا بني؛ إن الذي يملأ بطنه من الخبز وحده، كالذي يملأها من اللحوم والفواكه والحلوىٰ، كلاهما لا يستطيع أن يدخل في معدته شيئًا إذا شبع، ومصير ما يأكله الأغنياء والفقراء واحد، وهو تلك القاذورات.

فيا بني؛ كن شريف النفس بعفتك ولا تدنس شرف نفسك بأكلة تذهب لذتها بمجرد الفراغ منها، ويلحقك عارها أينما حللت وحيثما توجهت.

يا بني؛ العفة تاج من لا تاج له،فاحتفظ بتاج العفة الذي يكسبك الوقار والاحترام عند الخاصة

والعامة، اتق المحارم كلها، وإذا مشيت في الطريق فلا تملأ عينك من النساء، ولا تكلم امرأة ليست ذات رحم محرم منك، وإياك أن تخلو بامرأة لا يحل لك المُقام معها، وائتمر بأمر الله في كتابه العزيز حيث يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾[النور:٣٠].

يا بني؛ إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، والنساء حبائل الشيطان وشَرَكه الذي يصطاد به ضعاف القلوب، فإياك يا بني أن يستهويك الشيطان بمكره، وتقع في أكبر الخطايا وأنكر المنكرات.

يا بني؛ تذكر قول الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[الإسراء].

يا بني؛ وصيتي لك أن تحترس من غُواية[1] الشيطان، ومن الشهوات الخبيثة، فإن الله مطلع عليك في خلوتك ومحاسبك علىٰ عملك.

يا بني؛ اقبل نصيحتي هذه واذكرها كلما عرض لك خاطر سوء من الخطرات الشهوانية، واستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وتوجه إلىٰ الله بعزيمة صادقة واسأله النجاة من كيد الشيطان وغروره والله يتولاك يا بني بحفظه ورعايته.

الدرس الخامس عشر

في المروءة والشهامة وعزة النفس

يا بني؛ لا خير في المرء إذا كان قليل المروءة دنيء الهمة، وضيع النفس مبتذلًا بين قومه وعشيرته، إذا أهين تصاغر وتذلل، وإذا احتقر كان جبانًا في موضوع الدفاع عن كرامة نفسه.

أمثال هؤلاء -يا بني- ليسوا أهل لأن يتشرفوا بالانتساب إلىٰ طلبة العلوم الدينية، ولا أن يكونوا من حملة الشريعة الإسلامية.

فيا بني؛ احتفظ بمروءتك ولا تضع نفسك في غير موضعها، احترس من مخالطة السفلة ومن معاشرة اللئام، وترفع عن الدنايا ولا تكن عبدًا لبطنك ولا عبدًا لشهواتك.

يا بني؛ الفقر من المال لا يعد في عيوب الرجال، يعاب المرء بقلة مروءته لا بقلة ثروته، ويحمد علىٰ جميل فعاله لا علىٰ كثرة ماله، من المروءة أن تصون ماء وجهك عن ذل السؤال راضيًا بعيش الكفاف

---

(١) قوله: (وصيتي لك أن تحترس من غُواية)، الصَّحيح لغة: ضم الغين، غُواية، وليس غِواية، ومثله نُفاية، فإنها نُفاية وليست نِفاية، بالكسرة؛ بل ذلك لحن، المعروف لغة الضم فيه، غُواية ونُفاية.

وبحسبك لقيمات يقمن صلبك، فلا تجعل لأحد عليك منَّة في الحصول علىٰ شيء من لذتك الفانية.

ومن المروءة أن تنظر إلىٰ ذوي الحاجات من إخوانك نظرة الاحترام ونظرة الإشفاق، ومن المروءة إذا ساعدتَّ أحد إخوانك بشيء من مالك أن لا تجعل ذلك وسيلة إلىٰ إذلاله واحتقاره.

يا بني؛ من الشهامة أن تعفوا عمن ظلمك، وأنت قادر علىٰ الانتقام منه، وتحسن إلىٰ من أساء إليك وأنت أقوىٰ منه علىٰ الإساءة، ومن الشهامة أن تقول كلمة الحق ولو علىٰ نفسك، ومن الشهامة أن تحافظ علىٰ كرامتك وإن كنت فقيرًا مُعدمًا.

يا بني؛ من لم يكن عزيزًا في نفسه لا يستفيد بالمال ولا بغيره عزًّا عز النفس أفضل وأشرف من العز بالمال، فمن عزة النفس أن تتجمل بين الناس وإن كنت فقيرًا، ومن عزة النفس أن لا تبوح باحتياجك لأحد مهما كانت منزلته عندك، ومن عزّة النفس أن تصبر علىٰ مضض العيش صبر الكرام وأن لا ترفع حاجتك إلىٰ غير مولاك.

يا بني؛ من عزة النفس ومن المروءة والشهامة أن لا تحمل الضيم والإذلال لنفسك، ولا لأحد من إخوانك، ولا لأحد من أبناء ملَّتك، ولا لوطنك الذي من طينته خلقت وتحت سمائه تربَّيت، قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**».

المروءة التي ذكرها المصنف طرفًا من أفرادها أحسن ما قيل في حدِّها أنها استعمال العبد ما يجمله ويزينه، واجتناب ما يدنسه ويشينه، من ذكر هذا؟ المجد أبو البركات في «المحرر»، وحفيده أبو العباس ابن تيمية، يعني الجد بن تيمية وأبو العباس أحمد حفيده رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

طيب ما معنىٰ الشهامة التي ذكرها المصنف في هذا الدرس؟

مذهب جماعة منهم الغزّالي وأبو بكر بن عربي أن الحقائق القلبية لا يُفصح اللسان عنها فلا تعرف، هذا صحيح، يعني يوجد في بعض الأمور أنه يعجز اللسان عن التعبير عنه، فالشهامة أمر عند الناس يمدحونه ويطرونه ويذكرونه، لكن ما اللفظ الذي يدل عليها؟ القوة، أيش؟ الجود بنفسه.

يعني **الشهامة** هي المبادرة إلىٰ بذل المعونة وتحمُّل ما يتقاعد غيره عنه من الأمور العظيمة، فالذي يبادر إلىٰ بذل المعونة ويتحمَّل ما لا يتحمل غيره من المتثاقلين هذا شهم.

من أمثلته، أن رجل من العامة قال لي، هذا يدل علىٰ شهامته، ولكنه كان يحدثني قال لي: إني لا أحتمل أن أرىٰ أحدًا قد انفجر إطار سيارته أو ثقب وهو يصلحه ثم أتجاوزه ولا أساعده، أقول: لا أعرف من نفسي ذلك أبدًا، أني مررت بأحد وهو يصلح إطار سيارته إلا وقفت وساعدته، هذا يدل علىٰ

سمو نفسه وعلوها.

من أعظم الصفات التي ينبغي أن تكون في طالب العلم، أن يكون شهمًا، لأن الناس يحتاجون إلىٰ من يعينهم وأن يقوم بحاجتهم، كانت هذه من أبرز خصال العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، فإنه كان شهمًا مبادِرًا إلىٰ نفع الناس معينا لهم متحملا في ذلك ما لا يتحمله غيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وبذلك ساد، فإنه لم يكن سؤدده بعلمه، فالعلماء كثير ولكن كان سؤدده بأخلاقه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ومن جملتها شهامته، وله في ذلك قصص كثيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

الدرس السادس عشر

في الغيبة والنميمة والحقد والحسد والكبر والغرور

يا بني؛ من الأخلاق الذميمة أن تذكر أخاك في غيبته بما يكره أن يسمعه بأذنه.

يا بني؛ لكل إنسان عيب فكما لا تحب ذكر عيوبك في غيبتك، يجب أن تصون لسانك عن عيوب الناس في غيبتهم، فاجتنب الغيبة يا بني واجتنب نظيرتها في الخُبث وهي النميمة، فلا تسعىٰ بالفساد بين الناس لا تقل لأحد إخوانك إن فلانًا قال فيك كذا وكذا وفلان رماك بكذا.

يا بني الغيبة والنميمة من أخلاق الأدنياء وأخلاق اللئام، لا من أخلاق طلاب العلوم الدينية، فلا تدنس نفسك بهذه الأخلاق الذميمة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾[الحجرات].

يا بني؛ لا تحسد أخاك علىٰ نعمة أنعم الله بها عليه دونك، فلو شاء ربك لأعطاك كما أعطاه.

يا بني؛ لا يستفيد الحسود من حسده إلا العداوة والبغضاء، إنك إذا حسدت أخاك أبغضك وعاداك وأبغضك لهذا الخُلق الذميم كل من عرفك، فدع الحسد يا بني ودع الحقد علىٰ إخوانك وعلىٰ الناس كافة، لا تضمر لأحد سوءًا، وإذا أساء إليك إنسان ثم اعتذر فقابل معذرته بالقَبول، وامح من قلبك حب الانتقام منه.

يا بني؛ كن سليم الصدر من حب الأذىٰ، يتودّد إليك الناس ويحبوك.

يا بني؛ الحقد والحسد خلقان خبيثان لا يضران إلا صاحبهما، فلا الحسد ينقل إليك نعمة من حسدته، ولا الحقد بضار من أضمرت له السوء إلا أن يشاء الله، ولكنك إذا كنت حسودًا حقودًا يكاد يلتهِب قلبك من الغيظ ليلك ونهارك.

يا بني؛ إذا أنعم الله عليك بنعمة فاشكره ولا تتكبر علىٰ خلقه، فإن الذي وهبك هذه النعمة قادر علىٰ سلبها منك، وإن الذي حرم غيرك قادرٌ علىٰ إعطائه ضعف ما أعطاك، فلا تتعرض لغضب الله تعالىٰ بالتكبر علىٰ خلقه، فإن الله لا يحب المتكبرين.

يا بني لا يحملنك الغرور بما أعطاك الله علىٰ نسيان عبوديتك لمولاك، وأنك واحد من مخلوقاته، لا فضْلَ لك علىٰ أحد منهم عند الله إلا بالتقوىٰ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجرات].

الدرس السابع عشر

في التوبة والخوف والرجاء والصبر مع الشكر

يا بني العصمة من الذنوب والخطايا ليست إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإذا قدر عليك الوقوع في خطيئة من الخطايا فبادر بالتوبة إلىٰ الله تعالىٰ، استغفر ربك إنه كان غفارًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يا بني العصمة من الذنوب والخطايا ليست إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام) يعني الحفظ من ذلك، ولفظ العصمة لفظ أجنبي عن الخطاب الشرعي، والعصمة التي تُنسب إلىٰ الأنبياء علىٰ درجات، وأظهر أقوال أهل العلم فيها وهي قول جمهورهم أنهم معصومون فيما يتعلق بتبليغ الرسالة، مع جواز وقوع الصغائر منهم، وتحقّق عدم إقرارهم عليها؛ بل يبادرون بالتَّوبة.

يا بني؛ التوبة من الذّنب ليست مجرد كلمة تقولها بلسانك، ولكن التوبة علىٰ الحقيقة اعترافك بين يدي مولاك بالخطيئة التي وقعت منك، واعترافك بأنك مذنب مستحق للعقوبة التي قدرها الله لهذا الذنب، وأن تشعر بالحزن والندم علىٰ ما فرَط منك، وأن تعاهد الله علىٰ أن لا تعود لمثله أبدًا، ثم ابتهل إلىٰ الله أن يصفح عنك فيما سلف إن شاء عفا عنك وإن شاء عاقبك.

هذه -يا بني- حقيقة التوبة والاستغفار، لا أن تقول بلسانك: تبت إلىٰ الله، وأنت مصر علىٰ مخالفة مولاك، إن التوبة باللسان بدون ندم ولا إقلاع عن الذنب خطيئة أخرىٰ تستحق عليها العقوبة.

يا بني؛ انظر إلىٰ نفسك مع أبيك أو أستاذك إذا أمرك بالمواظبة علىٰ الدرس فأهملت، وأراد عقوبتك فقلت: إني تائبٌ هل تصح توبتك وأنت لاه عن دروسك؟ أليست هذه التوبة من الأكاذيب التي تستحق عليها عقوبة أخرىٰ.

يا بني؛ الخوف من الله يحول بين المرء وذنبه، فمن اشتدَّ خوفه من ربه فقلما يقترف خطيئة من الخطايا، فخف الله يا بني خوفًا يحولُ بينك وبين مخالفة أمره، ولا تيأس من رَوْح الله إذا فرَطَت منك

خطيئة، ابتهل إلىٰ الله في سرك وجهرك واسأله العفو والمغفرة، إنَّ ربك غفور رحيم.

ما معنىٰ رَوح الله؟ رحمته، وسعة عفوه، هذا صار تفسير للصفة بمعنىٰ صفة أخرىٰ، ومن قواعد الصفات: أن كل صفة إلهية تشتمل علىٰ معنًىٰ ليس في غيرها، لماذا هذه القاعدة؟ لأن ذلك مقتضىٰ الكمال، فكمال الله يستدعي أن يكون في كل صفة من صفاته كمالًا ليس في صفة أخرىٰ ولذلك روح الله فرج الله، رَوْح الله يعني فرج الله، ويغلب كونه بعد الشدة.

ﮔﮔ ◊ ﮓﮓ

يا بني؛ إذا أصابتك مصيبة في نفسك، أو مالك، أو في عزيز عندك فاصبر واحتسب أجرك عند الله، وقابل قضاء الله وقدره بالرِّضا والقبول، واشكر مولاك علىٰ لطفه بك وإحسانه إليك إذ لم يضاعف المصيبة عليك، واسأله اللُّطف في القضاء والقدر، وقل: اللّٰهُمَّ إني لا أسألك رد القضاء؛ ولكن أسألك اللطف فيه. [1]

يا بني؛ لو اطلعت علىٰ الغيب لاخترت صنع الله بك، فما من مصيبة إلا وعند الله أعظم منها، فلا تنازع الأقدار، ولا تعترض علىٰ مولاك، فإنه الفعّال لما يريد، ولا رادّ لقضائه و لا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء وهو الحكيم الخبير.

الدرس الثامن عشر

في فضيلة العمل والكسب مع التوكل والزهد

يا بني؛ تعلم العلم لتعمل به في نفسك ولتعلمه للناس وتحملهم علىٰ العمل به، وتعلّم العلم لتحسن بعلمك تدبير حياتك وطريق معاشك ومعادك، فما تعلّمت ليكون العلم غُلًّا في عنقك ولا قيدًا في رجلك يمنعك السعي ويحول بينك وبين أسباب معاشك.

يا بني؛ العالم أولىٰ أن يكون قدوة للناس باكتساب المال من وجوه الحل، لإنفاقه في وجوه البر، هذا هو العالم الذي يشرق نور علمه علىٰ العامة فيهتدون بهديه، إذا باع وإذا اشترىٰ وإذا استدان وإذا زرع وإذا اتجر وإذا أنفق.

يا بني؛ لا عيب علىٰ طالب العلم إذا علم في مزرعته أو مزرعة أبيه بنفسه، إنما العيب كل العيب أن

---

(١) قوله رحمه الله: (وقل: اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه)، هذا الدعاء فيه نظر، بل العبد يدعو عبده ﷻ أن يصرف عنه ما لا يوافقه من سوء القضاء، فيستعيذ بالله من سوء القضاء.

يكون كلًّا علىٰ الناس يترقب الصدقات، وينتظر فضلة أصحاب المروءات.[(١)]

يا بني؛ كان النبي ﷺ يرعىٰ الغنم قبل البعثة، ثم كان يتجر حتىٰ بعث ومازال كذلك حتىٰ كان رزقه تحت ظل رمحه، وكان أبو بكر الصديق تاجرًا حتىٰ استُخلف، وكذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من السلف الصالح، فما منعهم العلم عن مزاحمة الناس في كسب الحلال بل كانوا قدوة حسنة في وجوه الكسب.

يا بني؛ إنك ستطلع علىٰ كثير من الأحكام الشرعية في البيع والرهن والإجارة والمضاربة والمزارعة ونحوها، فاعمل بما تعلم، وعلم الناس يضاعف الله لك الأجر علىٰ علمك وعملك.

إياك –يا بني– أن تظن كما يظن بعض الأغبياء أن التوكل علىٰ الله هو ترك العمل والاستسلام للأقدار، إن الزارع الذي يحرث أرضه ويعمل فيها بنفسه ليلًا ونهارًا من أفضل المتوكلين علىٰ الله إذا حسنت نيته، فإنه وضع الحبة في بطن الأرض وأحسن عمله وفوّض الأمر إلىٰ ربه، فإن شاء أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وإن شاء أماتها فلم تنبت شيئا.

يا بني؛ ليس الزهد ترك العمل؛ ولكن الزهد أن يخرج حب الدنيا من قلبك، وإذا اكتسبت أكثر من حاجتك واسيت الضعفاء وتصدقت علىٰ الفقراء ولم يدفعك الحرص وحب الاستكثار إلىٰ طلب الدنيا من غير الوجوه التي أحلها الله لعباده، فيا بني ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص].

الدرس التاسع عشر

في إخلاص النية لله تعالى في جميع الأعمال

يا بني؛ إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، إن الذي يترك الأكل والشرب من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس بنية الصوم كالذي يتركهما لأنه لم يجدهما، لكن الأول له أجر الصائم، والثاني ليس له ذلك الأجر.

فأخلص النية لمولاك –يا بني– في جميع أعمالك، تفقه في الدين بنية الوقوف عند حدود الله فيما أحل وحرم، وما كان حرامًا اجتنبه لأن الله نهاك عنه، وما كان واجبا فعلته؛ لأن الله أمرك به، وتعلم علوم اللغة العربية لتقوىٰ علىٰ إدراك الحِكم والمواعظ التي استودعها الله تعالىٰ في كتابه الكريم، وأجراها علىٰ لسان رسوله ﷺ فيما صحت روايته عنه.

---

(١) قوله: (أن يكون كلًّا) أي عبئًا، يكلفهم ويثقل عليهم.

وتعلم العلوم العقلية، لتقوىٰ بها حجتك، وتستضيء بصيرتك في نصرة دين الله وإرشاد الخلق إلىٰ سبيل الهدىٰ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وتعلم العلوم العقلية) وذلك في ميقاتها التي تحتاج إليه، فإن العلوم العقلية ليست من علوم الأوائل، وإنما يحتاج إليها الإنسان بقدر ما يستعين بها علىٰ سقل ذهنه وتجويد فهمه؛ كالمحتاج إليه من علم المنطق والفلسفة، وأشباههما، فإن الحاجة صارت مستدعية أن يحيط المرء بشيء من هذه العلوم، وهو قدر يسير ينتفع به في كتب علماء الإسلام من القدماء في الرد علىٰ المبطلين، ومن لم تكن له معرفة بالجوهر والعرض ومراتبها، وأنواع المقولات، لم ينتفع بجملةٍ من كتب أهل العلم، ولاسيما كتب أبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ كـ«بغية المرتاد»، أو «الرد علىٰ المنطقيين»، إلا أن طلب مثل هذه العلوم يؤخر حتىٰ حال الكمال في معرفة ما يلزمك من الاعتقاد والأحكام ومعرفة معاني كلام الله سبحانه وتعالىٰ، ثم يؤخذ منها قدرُ الحاجة دون زيادة؛ لأن الزيادة فيها تضر بالدين.

❀❀◈❀❀

يا بني؛ اجعل أعمالك كلها لخدمة مولاك الذي خلقك وسوّاك، لا تطلب بها غير وجه ربك، اترك الشر؛ لأن الله تبارك وتعالىٰ أمرك بتركه، وافعل الخير؛ لأن الله تعالىٰ أمرك بفعله، الزم الأدب مع إخوانك؛ لأن الله تعالىٰ أمرك به، لا لأن مخلوقا مثلك يعاقبك علىٰ تركه.

لا تتعدّ علىٰ حقوق العباد؛ لأن الله تعالىٰ نهاك عن العدوان، لا لأنك إذا تعديت علىٰ الحقوق تحاكم ويقضىٰ عليك بردها لأهلها.

لا تخن أحدًا من خلق الله؛ لأن الله تعالىٰ نهاك عن الخيانة، لا خوفا من عقوبة مخلوق مثلك.

أطع أباك وأمك؛ لأن الله تعالىٰ أمرك بطاعتهما، لا خشية أن تنقطع النفقة عنك إذا عصيتهما.

أطع الحكام وأولياء الأمور لأن الله تعالىٰ أمرك بطاعتهم لا طمعًا في علو المنزلة عندهم ولا خوفًا من سطوتهم وبطشهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أطع الحكام وأولياء الأمور) المعروف في الخطاب الشرعي إفراد الأمر لا جمعه، الموافق أن يقال: وأولياء الأمر، لأن المقصود أصلًا من نصب ولي الأمر في المسلمين هو اجتماع أمرهم وعدم تفرق شملهم.

وما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ من الأمر بطاعتهم (لا طمعا في علو المنزلة عندهم ولا خوفا من سطوتهم وبطشهم) هو الجادة الشرعية، فيطاعون لا رغبة ولا رهبة، بل عبادة وقربة فهذه عقيدة الصادق

فيهم، فإنه لا يرغب في شيء مما عندهم، ولا يرهب منهم شيء يأخذونه فيه بالظلم، فإن ذلك أمر الله الجاري عليه بتقدير، وإنما نطيعهم في الطاعة عبادة وقربة لله سبحانه وتعالىٰ.

أشفق علىٰ الضعفاء والمرضىٰ واليتامىٰ والمساكين؛ لأن الله تعالىٰ أمرك بالإشفاق عليهم، لا ليقول الناس عنك: إنك من المحسنين.

احذر أعداءك وأعداء قومك؛ لأن الله تعالىٰ أمرك بالحذر منهم، لا حبًّا في الانتقام ممن يعاديك.

اجتهد أن تكون أعمالك كلها في خدمة ملّتك وأبناء وطنك طمعا في رضوان الله وطلبا للأجر عند ربك، لا رغبة في الشهر وجمع الدنيا.

وفقك الله وأرشدك إلىٰ ما فيه صلاح دنياك وآخرتك.

الدرس العشرون
في خاتمة الوصايا

يا بني؛ أكثر من مدارسة القرآن، واحفظ آياته الشريفة عن ظهر قلبك، وإذا قرأت القرآن فلا تقرأه وأنت غافل عن معناه، وإذا أشكل عليك فهم آيةٍ فارجع إلىٰ كتب التفسير، أو إلىٰ أحد العلماء تتعلم معناها.

يا بني؛ شتان بين من يقرأ ولا يفهم معنىٰ ما يقرؤه، وبين من يقرأ ومعاني القرآن الكريم حاضرة لديه:

الأول: كالأعمىٰ يمشي في الطريق لا يبصر منها شيئًا.

والثاني: كصاحب البصر يتقي ببصره مواقع الزلل.

يا بني؛ ربّ قارئ للقرآن والقرآن يلعنه[1]، فما أنزل الله الكتاب العزيز لمجرّد التلاوة بلا فهم، ولا لتلاوته مع فهم معناه فقط، ولكن أنزله لامتثال ما أمر به واجتناب ما نُهي عنه، وللتخلق بما تضمَّنته آياته الشريفة من الأخلاق الكريمة، فاقرأ القرآن بقصْدِ امتثال أمره واجتناب نهيه، والتخلق بأخلاقه.

يا بني؛ حاسب نفسك علىٰ ما فعلت قبل أن يحاسبك مولاك، فإذا خلوت بنفسك عند النوم فاذكر ما صنعت في يومك وليلتك، فإن رأيت خيرًا فاحمد الله علىٰ توفيقه، وإن رأيت شرًّا فافزع إلىٰ التوبة والندم وعاهد مولاك علىٰ أن لا تعود، واستغفر ربك كثيرًا لعل الله يقبل توبتك ويغفر لك ما تقدَّم من ذنبك.

يا بني؛ أكثر من الابتهال إلىٰ الله والدَّعوات الصالحات لنفسك ولأبويك ولإخوانك المؤمنين، وقل:

(١) قوله رحمه الله: (يا بني؛ رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه)، يُذكر فيه حديث بهذا اللفظ لا أصل له.

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾[إبراهيم].

اللَّهُمَّ برحمتك عُمّنا واكفنا شر ما أهمنا، وعلىٰ الإيمان الكامل والكتاب والسنة توفَّنا وأنت راض عنا، اغفر اللَّهُمَّ لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولإخواننا في الله تعالىٰ أحياء وأمواتا ولكافة المسلمين أجمعين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام علىٰ المرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين.

وكان الفراغ من تحريره في شهر ذي القعدة الحرام في سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية، علىٰ يد أفقر العباد وأحوجهم إلىٰ رحمة مولاه، محمد شاكر شيخ علماء الإسكندرية، والحمد لله أولًا وآخرًا.

قوله في آخرها: (علىٰ يد أفقر العباد) هل تلتئم مع قوله (شيخ علماء الإسكندرية)؟

لاحظوا أنتم تجيبون عن رجل كلامه منوَّر نحسبه والله حسيبه رَحِمَهُ اللَّهُ.

الجواب: هذا خبر عن وظيفته في الدولة، فالخبر عن الوظيفة في الدولة لا يناقض حال الافتقار، وإظهار الحاجة والعوز، وإنما التلقب بألقاب لا حاجة لها في هذا المقام هي التي تكون من قبيل هذا النوع.

كمن يكتب علىٰ كتبه الشيخ كذا وكذا، أو يكتبه له الشيخ العلامة، فلم يكن هذا من خلق أهل العلم، وإنما ظهر بعد ذهاب من يقتدىٰ به من العلماء، وانظر إلىٰ كتب جماعة من الأكابر لا تكاد تجد عليها مثل هذه الألقاب، فينبغي التمييز بين المرتبتين.

وهذا الكتاب كتاب عظيم نافع، ينبغي أن يرجع طالب العلم إلىٰ قراءته مرة ثانية، وإذا أمكن أن يجتمع مع غيره فيقرؤونه مرة ثانية، ويتفهمون ما يحاج إليه من معان تركنا بيانها لظهورها، أو لأنها قد بينت في غير هذا المقام، فهو أنفع لهما.

نسأل الله العلي العظيم أن يوفقنا جميعا لما يحب ويرضىٰ، هذا آخر التقرير علىٰ هذا الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبيه ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.